الفصل الرابع

حقيقة الإخلاص

اختلفت عبارات أهل السلوك - على عادتهم - فى تحديد ماهية الإخلاص ، فكل منهم نظر إلى جانب ، أو لفت إلى معنى من معانيه ، أو أكد ما ذكره الآخر ، وإن كانت العبارة مغايرة .

قال الأستاذ أبو القاسم القشيرى فى « رسالته » :

الإخلاص : إفراد الحق سبحانه فى الطاعة بالقصد ، وهو : أنه يريد بطاعته التقرب إلى الله سبحانه دون أى شىء آخر ؛ من تصنع لمخلوق ، أو اكتساب محمدة عند الناس ، أو محبة مدح من الخلق ، أو معنى من المعانى سوى التقرب به إلى الله تعالى ، ويصح أن يقال : الإخلاص تصفية الفعل من ملاحظة المخلوقين .

ويصح أن يقال : الإخلاص : التوقى عن ملاحظة الأشخاص .

وقال شيخ القوم الجنيد : الإخلاص : سر بين الله وبين العبد ، لا يعلمه ملَك فيكتبَه ، ولا شيطان فيفسدَه ، ولا هوى فيُميلَه .

وقد ورد فى ذلك حديث قدسى ذكره القشيرى بسنده عن رب العزَّة قال : « الإخلاص سر من سرى ، استودعته قلب مَن أحببت من عبادى » [1] .

وقال أبو عثمان : الإخلاص : نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى فضل الخالق .

---

(١) انظر : « الرسالة » للقشيرى تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ، ومحمود بن الشريف : (١/ ٤٤٣) ، وقد ذكر الحافظ العراقى فى تخريج « الإحياء » : أن إسناد الحديث ضعيف .

وقال حذيفة المرعشى : الإخلاص : أن تستوى أفعال العبد فى الظاهر والباطن .

وسئل بعضهم عن الإخلاص ، فقال : ألا تُشهد على عملك غير الله عَزَّ وجَلَّ .

وقال ذو النون : ثلاث من علامات الإخلاص : استواء المدح والذم من العامة ، ونسيان رؤية الأعمال فى الأعمال ، ونسيان اقتضاء ثواب العمل فى الآخرة .

وقال سهل بن عبد الله : لا يعرف الرياء إلا مخلص [1] .

* *

● عناصر مهمة فى تكوين الإخلاص :

وهذه الأقوال تشير إلى عناصر مهمة تتكون منها حقيقة الإخلاص ، من هذه العناصر :

(أ) أن يهتم المخلص بنظر الخالق لا بنظر المخلوقين ، فإنهم لن يغنوا عنه من الله شيئاً . وقد قال الفضيل بن عياض : العمل من أجل الناس شرك ، وترك العمل من أجل الناس رياء ، والإخلاص : أن يعافيك الله منهما .

(ب) أن يستوى ظاهر المخلص وباطنه ، وعلانيته وسريرته ، فلا يكون ظاهره عامراً وباطنه خراباً ، ولا تكون علانيته عسلاً ، وسريرته علقماً ، وقد قال سرى السقطى : مَن تزيَّن للناس بما ليس فيه سقط من عين الله تعالى .

(جـ) أن يستوى عنده مدح الناس وذمهم ، وقد قيل : ما عليك أن تكون مذموماً عند الناس إذا كنت محموداً عند الله ، والعكس أيضاً صحيح .

(د) ألا ينظر إلى إخلاصه ، فيعجب بنفسه ، فيهلكه عُجْبه ، ولذا أكد العارفون عدم رؤية الأعمال ، حتى قال أبو يعقوب السوسى : متى شهدوا فى إخلاصهم الخلاص ، احتاج إخلاصهم إلى إخلاص !

---

(١) انظر هذه الأقوال فى الرسالة (١/ ٤٤٣ - ٤٤٦) .

وقال أبو بكر الدقاق : نقصان كل مخلص فى رؤية إخلاصه ، فإذا أراد الله تعالى أن يخلص إخلاصه ، أسقط عن إخلاصه رؤيته لإخلاصه ، فيكون مُخلَصاً لا مخلِصاً .

وقال أبو عثمان المغربى : الإخلاص ما يكون للنفس فيه حظ بحال ، وهذا إخلاص العوام ، وأما إخلاص الخواص ، فهو ما يجرى عليهم لا بهم ، فتبدو منهم الطاعات ، وهم عنها بمعزل ، ولا يقع لهم عليها ولا بها اعتداد ، فذلك إخلاص الخواص .

ومعنى هذا : أنهم فنوا عن أنفسهم وعن أعمالهم ، وعن إخلاصهم ، فلم يروا إلا الله تعالى الذى أخلصهم لدينه ، فأخلصوا له دينهم .

(هـ) ومن عناصر الإخلاص : نسيان اقتضاء ثواب العمل فى الآخرة ؛ لأن المخلص لا يأمن أن يكون عمله مشوباً بحظ للنفس قد يخفى عليه ، فلا يحظى عمل بالقبول عند الله تعالى ، فقد قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (١) .

والأعمال وإن عظمت فإنها لا تكافئ أدنى نعمة من نعم الله تعالى على عبده ، على أن التوفيق للعمل إنما هو من الله تعالى ، فهو صاحب الفضل أولاً وآخراً ، فلا يقتضى العمل فى ذاته ثواباً فى نظر المخلص ، بل يرى الثواب إحساناً من الله إليه ، كما قال النبى ﷺ : « لن يُدخل أحدكم الجنَّة عمله » ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمته » (متفق عليه عن أبى هريرة) .

(و) الخوف من تسرب الرياء والهوى إلى النفس ، وهو لا يشعر ، فإن للشيطان سراديب خفية وملتوية ، يدخل بها إلى النفس ، وقد يئس من إيقاع المؤمن فى المعاصى الظاهرة ، فعمله الدائم معه فى المعاصى الباطنة ، وبها يستطيع أن يضيع عليه عباداته وأعماله التى يرجو بها الله والدار الآخرة .

---

(١) المائدة : ٢٧

ولهذا قال سهل : لا يعرف الرياء إلا مخلص ، لأنه - لخوفه منه - يرقبه ويتتبعه ، ويعرف أغواره ومداخله ، ولا يكذب على نفسه ، ويزين لها سوء عمله فتراه حسناً .

ومن أجل هذا صعب الإخلاص ، وقلَّ المخلصون ، وفيه قال سهل أيضاً : أهل « لا إله إلا الله » كثير ، ولكن المخلصين منهم قليل !

هذه العناصر التي ذكرناها هي مقوِّمات الإخلاص الكامل ، والسعيد مَن توافرت له كلها وقليل ما هم ، وعلى قدر حظ المسلم منها يكون حظه من الإخلاص .

* *

● تحقيق الغزالى فى بيان معنى الإخلاص :

وللإمام الغزالى بحث عميق فى « إحيائه » فى بيان حقيقة الإخلاص ، وهو فارس الميدان فى هذا المجال ، علماً وعملاً ، وهو الذى رأى عمله فى التصنيف والتدريس فى علوم الفقه والأصول والكلام والرد على الفلاسفة والباطنية وغيرها - مما بوّأه مقعد الشهرة والإمامة فى العالَم الإسلامى كله يومئذ - رأى ذلك كله عملاً من أعمال الدنيا ، وشهوات النفس ، وطلب المنزلة والجاه فى قلوب الخلق ، فاعتزل ذلك كله ، ليطلب الخلاص فى الإخلاص [1] .

ولهذا كان كلامه هنا كلام خبير بأهواء النفس البَشرية ومنعطفاتها وتمويهاتها ، وبتلبيس إبليس على الإنسان ، حتى يحسب أنه يعمل لله ، وهو إنما يعمل لذاته .

يقول الغزالى :

« اعلم أن كل شىء يُتصور أن يشوبه غيره ، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمى خالصاً ويسمى الفعل المصفى المخلص إخلاصاً ، قال الله تعالى :

---

(١) انظر فى ذلك كتابنا « الإمام الغزالى بين مادحيه وناقديه » نشر دار الوفاء ودار الصحوة .

﴿ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِّلشَّارِبِينَ ﴾ (١) ، فإنما خلوص اللبن أن لا يكون فيه شوب من الدم والفرث ، ومن كل ما يمكن أن يمتزج به ، والإخلاص يضاده الإشراك ، فمن ليس مخلصاً فهو مشرك ، إلا أن الشرك درجات ، فالإخلاص فى التوحيد يضاده التشريك فى الإلهية ، والشرك منه خفى ، ومنه جلى ، وكذا الإخلاص ، والإخلاص وضده يتواردان على القلب ، فمحله القلب وإنما يكون ذلك فى القصود والنيات .

« وقد ذكرنا حقيقة النية ، وأنها ترجع إلى إجابة البواعث ، فمهما كان الباعث واحداً على التجرد سمى الفعل الصادر عنه إخلاصاً ، بالإضافة إلى المنوى ، فمَن تصدَّق وغرضه محض الرياء فهو مخلص ، ومَن كان غرضه محض التقرب إلى الله تعالى فهو مخلص ، ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الإخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب ، كما أن الإلحاد عبارة عن الميل ، ولكن خصصته العادة بالميل عن الحق ، ومَن كان باعثه مجرد الرياء فهو مُعرَّض للهلاك ، ولسنا نتكلم فيه ، إذ قد ذكرنا ما يتعلق به فى كتاب الرياء من ربع المهلكات .

« وإنما نتكلم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب ، ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر ، إما من الرياء أو من غيره من حظوظ النفس ، ومثال ذلك أن يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب ، أو يعتق عبده ليتخلص من مؤنته وسوء خُلقه ، أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر ، أو يتخلص من شر يعرض له فى بلده ، أو ليهرب عن عدو له فى منزله ، أو يتبرم بأهله وولده ، أو بشغل هو فيه ، فأراد أن يستريح منه أياماً ، أو يغزو ليمارس الحرب ويتعلم أسبابه ، ويقدر به على تهيئة العساكر وجرها ، أو يصلى بالليل وله غرض فى دفع التعاس عن نفسه به ليراقب أهله ، أو رحله ، أو يتعلم

---

(١) النحل : ٦٦

العلم ليسهل عليه طلب ما يكفيه من المال ، أو ليكون عزيزاً بين العشيرة ، أو ليكون عقاره أو ماله محروساً بعز العلم عن الأطماع ، أو اشتغل بالدرس والوعظ ليتخلص عن كرب الصمت ويتفرج بلذة الحديث ، أو تكفل بخدمة العلماء أو الصوفية لتكون حرمته وافرة عندهم وعند الناس ، أو لينال به رفقاً فى الدنيا ، أو كتب مصحفاً ليُجوِّد بالمواظبة على الكتابة خطه ، أو حج ماشياً ليخفف عن نفسه الكراء ، أو توضأ ليتنظف ، أو يتبرد ، أو اغتسل لتطيب رائحته ، أو روى الحديث ليُعرف بعلو الإسناد ، أو اعتكف فى المسجد ليخف كراء المسكن ، أو صام ليخفف عن نفسه التردد فى طبخ الطعام ، أو ليتفرغ لأشغاله فلا يشغله الأكل عنها ، أو تصدَّق على السائل ليقطع إبرامه فى السؤال عن نفسه ، أو يعود مريضاً ليُعَاد إذا مرض ، أو يشيع جنازة ليشيع جنائز أهله ، أو يفعل شيئاً من ذلك ليُعرف بالخير ويُذكر به ويُنظر إليه بعين الصلاح والوقار ، فمهما كان باعثه هو التقرب إلى الله تعالى ، ولكن انضاف إليه خطرة من هذه الخطرات حتى صار العمل أخف عليه ، بسبب هذه الأُمور فقد خرج عمله عن حد الإخلاص ، وخرج عن أن يكون خالصاً لوجه الله تعالى وتطرق إليه الشرك ، وقد قال تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشركة .

« وبالجملة . . كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس ، ويميل إليه القلب ، قلّ أم كثر إذا تطرق إلى العمل تكدر به صفوه ، وزال به إخلاصه ، والإنسان مرتبط فى حظوظه ، منغمس فى شهواته ، قلَّما ينفك فعل من أفعاله ، وعبادة من عباداته ، عن حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الأجناس ، فلذلك قيل : مَن سلم له من عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله نجا ، وذلك لعزة الإخلاص ، وعُسر تنقية القلب عن هذه الشوائب ، بل الخالص هو الذى لا باعث عليه إلا طلب القرب من الله تعالى ، وهذه الحظوظ إن كانت هى الباعثة وحدها فلا يخفى شدة الأمر على صاحبه فيها ، وإنما نظرنا فيما إذا كان القصد الأصلى هو التقرب وانضافت إليه هذه الأمور ، ثم هذه الشوائب ،

إما أن تكون فى رتبة الموافقة ، أو فى رتبة المشاركة ، أو فى رتبة المعاونة كما سبق فى النية .

« وبالجملة . . فإما أن يكون الباعث النفسى مثل الباعث الدينى ، أو أقوى منه ، أو أضعف ، ولكل واحد حكم آخر كما سنذكره ، وإنما الإخلاص تخليص العمل عن هذه الشوائب كلها ، قليلها وكثيرها ، حتى يتجرد فيه قصد التقرب فلا يكون فيه باعث سواه ، وهذا لا يُتصور إلا من محب لله مستهتر بالله ، مستغرق الهم بالآخرة ، بحيث لم يبق لحب الدنيا فى قلبه قرار ، حتى لا يحب الأكل والشرب أيضاً ، بل تكون رغبته فيه كرغبته فى قضاء الحاجة من حيث إنه ضرورة الجبلة ، فلا يشتهى الطعام لأنه طعام ، بل لأنه يقويه على عبادة الله تعالى ، ويتمنى أن لو كفى شر الجوع ، حتى لا يحتاج إلى الأكل ، فلا يبقى فى قلبه حظ من الفضول الزائدة على الضرورة ، ويكون قدر الضرورة مطلوباً عنده ، لأنه ضرورة دينه ، فلا يكون له هم إلا الله تعالى ، فمثل هذا الشخص لو أكل أو شرب ، أو قضى حاجته ، كان خالص العمل صحيح النية فى جميع حركاته وسكناته . فلو نام مثلاً حتى يريح نفسه ليتقوّى على العبادة بعده كان نومه عبادة ، وكان له درجة المخلصين فيه ، ومَن ليس كذلك فباب الإخلاص فى الأعمال مسدود عليه إلا على الندور ، وكما أن مَن غلب عليه حب الله وحب الآخرة فاكتسبت حركاته الاعتيادية صفة همه وصارت إخلاصاً ، فالذى يغلب على نفسه الدنيا والعلو والرياسة وبالجملة غير الله ، فقد اكتسبت جميع حركاته تلك الصفة ، فلا تسلم له عباداته من صوم وصلاة وغير ذلك إلا نادراً .

« فإذَنْ علاج الإخلاص كسر حظوظ النفس ، وقطع الطمع عن الدنيا ، والتجرد للآخرة ، بحيث يغلب ذلك على القلب ، فإذ ذاك يتيسر الإخلاص . وكم من أعمال يتعب الإنسان فيها ويظن أنها خالصة لوجه الله ، ويكون فيها مغروراً ، لأنه لا يرى وجه الآفة فيها ، كما حكى عن بعضهم أنه قال : قضيت صلاة ثلاثين سنة كنت صليتها فى المسجد فى الصف الأول ، لأنى تأخرت

يوماً لعذر فصليت فى الصف الثانى ، فاعترتنى خجلة من الناس حيث رأونى فى الصف الثانى ، فعرفت أن نظر الناس إلىّ فى الصف الأول كان مسَّرتى ، وسبب استراحة قلبى ، من حيث لا أشعر ! وهذا دقيق غامض قلَّما تسلم الأعمال من أمثاله ، وقَلَّ مَن يتنبه له إلا مَن وفَّقه الله تعالى ، والغافلون عنه يرون حسناتهم كلها فى الآخرة سيئات وهم المرادون بقوله تعالى : ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ * وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ ﴾ (١) ، وبقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ (٢) . وأشد الخلق تعرضاً لهذه الفتنة العلماء ؛ فإن الباعث للأكثرين على نشر العلم لذة الاستيلاء والفرح بالاستتباع ، والاستبشار بالحمد والثناء ، والشيطان يلبس عليهم ذلك ، ويقول : غرضكم نشر دين الله ، والنضال عن الشرع الذى شرعه رسول الله ﷺ ، وترى الواعظ يمن على الله تعالى بنصيحة الخلق ، ووعظه للسلاطين ، ويفرح بقبول الناس قوله وإقبالهم عليه ، وهو يدّعى أنه يفرح بما يُسِّر له من نُصرة الدين ، ولو ظهر من أقرانه مَن هو أحسن منه وعظاً ، وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ساءه ذلك وغمه ، ولو كان باعثه الدين لشكر الله تعالى ، إذ كفاه الله تعالى هذا المهم بغيره ، ثم الشيطان مع ذلك لا يخليه ، ويقول : إنما غمك لانقطاع الثواب عنك لا لانصراف وجوه الناس عنك إلى غيرك ، إذ لو اتعظوا بقولك لكنت أنت المثاب ، واغتمامك لفوات الثواب محمود ، ولا يدرى المسكين أن انقياده للحق ، وتسليمه الأمر أفضل وأجزل ثواباً ، وأعود عليه فى الآخرة من انفراده .

« فمعرفة حقيقة الإخلاص والعمل به بحر عميق ، يغرق فيه الجميع ، إلا الشاذ النادر والفرد الفذ ، وهو المستثنى فى قوله تعالى : ﴿ إِلا عِبَادَكَ

---

(١) الزمر : ٤٧ - ٤٨ (٢) الكهف : ١٠٣ - ١٠٤

مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [1] ، فليكن العبد شديد التفقد والمراقبة لهذه الدقائق ، وإلا التحق بأتباع الشياطين وهو لا يشعر » [2] .

* *

● كلام الغزالى فى حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به :

ومما بحثه الغزالى وحققه فى كتاب « النية والإخلاص » من « الإحياء » : بيان حكم العمل الذى امتزجت به بعض الشوائب الدنيوية ، أو الحظوظ النفسية ، ولم يخلص كله لله ، ولم يكن كله للرياء ، وهل يستحق المسلم به بعض الثواب أو لا ؟

وكلامه هنا جيد ينبغى أن يُنقل أيضاً ، ففيه نجد عقل الفقيه ، وقلب الصوفى معاً .

يقول رضى الله عنه :

« اعلم أن العمل إذا لم يكن خالصاً لوجه الله تعالى ، بل امتزج به شوب من الرياء أو حظوظ النفس ، فقد اختلف الناس فى أن ذلك هل يقتضى ثواباً ، أم يقتضى عقاباً ، أم لا يقتضى شيئاً أصلاً ، فلا يكون له ولا عليه ؟

وأما الذى لم يرد به إلا الرياء فهو عليه قطعاً ، وهو سبب المقت والعقاب .

وأما الخالص لوجه الله تعالى فهو سبب الثواب .

وإنما النظر فى المشوب ، وظاهر الأخبار [3] تدل على أنه لا ثواب له ، وليس تخلو الأخبار عن تعارض فيه .

---

(١) سورة ص : ٨٣ (٢) الإحياء - طبعة الشعب ص ٢٧١٢ - ٢٧١٦

(٣) الأخبار التى يدل ظاهرها على أن العمل المشوب لا ثواب له مرّ بنا بعضها ، منها : ما رواه أبو داود من حديث أبى هريرة أن رجلاً قال : يا رسول الله ؛ رجل يبتغى الجهاد فى سبيل الله وهو يبتغى عَرَضاً من عرض الدنيا . فقال رسول الله ﷺ : « لا أجر له . . . » . الحديث ، وللنسائى من حديث أبى أمامة بإسناد حسن : أرأيت رجلاً غزا يلتمس =

والذى ينقدح لنا فيه ، والعلم عند الله ، أن ينظر إلى قدر قوة الباعث .

فإن كان الباعث الدينى مساوياً للباعث النفسى تقاوما وتساقطا ، وصار العمل لا له ولا عليه .

وإن كان باعث الرياء أغلب وأقوى فهو ليس بنافع ، وهو مع ذلك مضر ومنغص للعقاب ، نعم العقاب الذى فيه أخف من عقاب العمل الذى تجرَّد للرياء ، ولم يمتزج به شائبة التقرب .

وإن كان قصد التقرب أغلب بالإضافة إلى الباعث الآخر - فله ثواب بقدر ما فضل من قوة الباعث الدينى ، وهذا لقوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ (١) ، ولقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا ﴾ (٢) . فلا ينبغى أن يضيع قصد الخير ، بل إن كان غالباً على قصد الرياء حبط منه القدر الذى يساويه وبقيت زيادة ، وإن كان مغلوباً سقط بسببه شىء من عقوبة القصد الفاسد .

وكشف الغطاء عن هذا : أن الأعمال تأثيرها فى القلوب بتأكيد صفاتها ، فداعية الرياء من المهلكات ، وإنما غذاء هذا المهلك وقوته العمل على وفقه ، وداعية الخير من المنجيات ، وإنما قوتها بالعمل على وفقها ، فإذا اجتمعت الصفتان فى القلب فهما متضادتان ، فإذا عمل على وفق مقتضى الرياء فقد قوّى تلك الصفة ، وإذا كان العمل على وفق مقتضى التقرب ، فقد قوّى أيضاً تلك الصفة ، وأحدهما مهلك ، والآخر منج ، فإن كان تقوية هذا بقدر تقوية الآخر فقد تقاوما ، فكان كالمستضر بالحرارة إذا تناول ما يضره ، ثم تناول من المبردات ما يقاوم قدر قوته ، فيكون بعد تناولهما كأنه لم يتناولهما ، وإن كان أحدهما غالباً لم يخل الغلب عن أثر ، فكما لا يضيع مثقال ذَرَّة من

= الأجر والذكر : ما له ؟ فقال : « لا شىء له » فأعادها ثلاث مرات يقول : « لا شىء له » ، ثم قال : « إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وابتُغِى به وجهه » .

(١) الزلزلة : ٧ - ٨ (٢) النساء : ٤٠

الطعام والشراب والأدوية ، ولا ينفك عن أثر فى الجسد بحكم سُنَّة الله تعالى ، فكذلك لا يضيع مثقال ذَرَّة من الخير والشر ، ولا ينفك عن تأثير فى إنارة القلب أو تسويده ، وفى تقريبه من الله ، أو إبعاده ، فإذا جاء بما يقربه شبراً مع ما يبعده ، فقد عاد إلى ما كان ، فلم يكن له ولا عليه ، وإن كان الفعل مما يقربه شبرين ، والآخر يبعده شبراً واحداً ، فضل له لا محالة شبر ، وقد قال النبى ﷺ : « أَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا » (١) ، فإذا كان الرياء المحض يمحوه الإخلاص المحض عقيبه ، فإذا اجتمعا جميعاً فلا بد وأن يتدافعا بالضرورة .

« ويشهد لهذا اجماع الأُمة على أن مَن خرج حاجاً ومعه تجارة ، صح حجه ، وأثيب عليه ، وقد امتزج به حظ من حظوظ النفس ، نعم يمكن أن يقال : إنما يثاب على أعمال الحج عند انتهائه إلى مكة ، وتجارته غير موقوفة عليه ، فهو خالص ، وإنما المشترك طول المسافة ، ولا ثواب فيه مهما قصد التجارة ، ولكن الصواب أن يقال : مهما كان الحج هو المحرِّك الأصلى ، وكان غرض التجارة كالمعين والتابع ، فلا ينفك نفس السفر عن ثواب ، وما عندى أن الغزاة لا يدركون فى أنفسهم تفرقة بين غزو الكفار فى جهة تكثر فيها الغنائم ، وبين جهة لا غنيمة فيها ، ويبعد أن يقال : إدراك هذه التفرقة يحبط بالكلية ثواب جهادهم . بل العدل أن يقال : إذا كان الباعث الأصلى ، والمزعج القوى ، هو إعلاء كلمة الله تعالى ، وإنما الرغبة فى الغنيمة على سبيل التبعية ، فلا يحبط به الثواب ، نعم لا يساوى ثوابه ثواب مَن لا يلتفت قلبه إلى الغنيمة أصلاً ، فإن هذا الالتفات نقصان لا محالة .

فإن قلت : فالآيات والأخبار تدل على أن شوب الرياء محبط للثواب ، وفى معناه شوب طلب الغنيمة ، والتجارة ، وسائر الحظوظ ، فقد روى طاوس (٢)

---

(١) رواه الترمذى عن أبى ذر وقال : حديث حسن . وهو من أحاديث الأربعين النووية .

(٢) حديث طاوس وعدة من التابعين أن رجلاً سأل النبى ﷺ عمن يصطنع المعروف ، أو قال : يتصدق فيحب أن يُحمد ويؤجر فنزلت : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَاءَ رَبِّهِ ﴾ .... الآية (الكهف : ١١٠) (ابن أبى الدنيا فى كتاب السُّنَّة ، والحاكم نحوه من رواية طاوس مرسلاً) .

وغيره من التابعين ، أن رجلاً سأل النبى ﷺ عمن يصطنع المعروف ، أو قال : يتصدَّق فيحب أن يُحمد ويؤجر ، فلم يدر ما يقول له ، حتى نزلت : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾ (١) ، وقد قصد الأجر والحمد جميعاً ، وروى معاذ عن النبى ﷺ أنه قال : « أَدْنَى الرِّيَاء شِرْكٌ » (٢) ، وقال أبو هريرة : قال النبى ﷺ : « يُقَالُ لِمَنْ أَشْرَكَ فِى عَمَلِهِ : خُذْ أَجْرَكَ مِمَّنْ عَمِلْتَ لَهُ » (٣) .

« وروى عن عبادة ، أن الله عَزَّ وجَلَّ يقول : « أنا أغنى الأغنياء عن الشركة ، من عمل لى عملاً فأشرك معى غيرى ودعت نصيبى لشريكى » وروى أبو موسى أن أعرابياً أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ؛ الرجل يقاتل حمية ، والرجل يقاتل شجاعة ، والرجل يقاتل ليُرى مكانه : مَنْ فى سبيل الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ الله هى الْعُلْيَا فَهُوَ فِى سَبِيلِ الله » (٤) . وقال عمر رضى الله عنه : تقولون فلان شهيد ، ولعله أن يكون قد ملأ دفتى راحلته وَرِقًا (أى دراهم) . وقال ابن مسعود رضى الله تعالى عنه : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ هَاجَرَ يَبْتَغِى شَيْئاً مِنَ الدُّنْيَا فَهُوَ لَهُ » (٥) .

« فنقول : هذه الأحاديث لا تناقض ما ذكرناه ، بل المراد بها : مَن لم يرد بذلك إلا الدنيا ، كقوله : « مَنْ هَاجَرَ يَبْتَغِى شَيْئاً مِنَ الدُّنْيَا » وكان ذلك هو الأغلب على همه ، وقد ذكرنا أن ذلك عصيان وعدوان ، لا لأن طلب الدنيا حرام ، ولكن طلبها بأعمال الدين حرام ، لما فيه من الرياء وتغيير العبادة عن

---

(١) الكهف : ١١٠ (٢) حديث معاذ : « أدنى الرياء شرك » : الطبرانى والحاكم وتقدم .

(٣) حديث أبى هريرة : « يقال لمن أشرك فى عمله : خذ أجرك ممن عملت له » ، تقدم من حديث محمود بن لبيد ، وفى رواية مالك فى الموطأ : « فهو له كله » .

(٤) متفق عليه وتقدم .

(٥) رواه سعيد بن منصور فى سننه ، والطبرانى من طريقه ، وقال الهيثمى : رجاله رجال الصحيح (٢/ ١٠) ، وقال الحافظ فى الفتح : إسناده صحيح على شرط الشيخين .

موضعها ، وأما لفظ الشركة حيث ورد فمطلق للتساوى ، وقد بيَّنا أنه إذا تساوى القصدان تقاوما ، ولم يكن له ولا عليه ، فلا ينبغى أن يُرجى عليه ثواب .

ثم إن الإنسان عند الشركة أبداً فى خطر ، فإنه لا يدرى أى الأمرين أغلب على قصده ، فربما يكون عليه وبالاً ، ولذلك قال تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾ (١) . . أى لا يرجى اللِّقاء مع الشركة التى أحسن أحوالها التساقط .

ويجوز أن يقال أيضاً : منصب الشهادة لا يُنال إلا بالإخلاص فى الغزو ، وبعيد أن يقال مَن كانت داعيته الدينية بحيث تزعجه إلى مجرد الغزو ، وإن لم يكن غنيمة ، وقدر على غزو طائفتين من الكفار ، إحداهما غنية ، والأخرى فقيرة ، فمال إلى جهة الأغنياء لإعلاء كلمة الله والغنيمة ، لا ثواب له على غزوه ألبتة . . ونعوذ بالله أن يكون الأمر كذلك ، فإن هذا حرج فى الدين ، ومُدخل لليأس على المسلمين ، لأن أمثال هذه الشوائب التابعة قط لا ينفك الإنسان عنها إلَّا على الندور ، فيكون تأثير هذا فى نقصان الثواب ، فأما أن يكون فى إحباطه فلا .

نعم . . الإنسان فيه على خطر عظيم ، لأنه ربما يظن أن الباعث الأقوى هو قصد التقرب إلى الله ، ويكون الأغلب على سره الحظ النفسى ، وذلك مما يخفى غاية الخفاء ، فلا يحصل الأجر إلا بالإخلاص ، والإخلاص قلَّما يستيقنه العبد من نفسه ، وإن بالغ فى الاحتياط .

فلذلك ينبغى أن يكون أبداً بعد كمال الاجتهاد متردداً بين الرد والقبول ، خائفاً أن تكون فى عبادته آفة يكون وبالها أكثر من ثوابها ، وهكذا كان الخائفون من ذوى البصائر ، وهكذا ينبغى أن يكون كل ذى بصيرة ، ولذلك

---

(١) الكهف : ١١٠

قال سفيان رحمه الله : لا أعتد بما ظهر من عملى . وقال عبد العزيز بن أبى روّاد : جاورتُ هذا البيت ستين سنة ، وحججتُ ستين حَجَّة ، فما دخلتُ فى شىء من أعمال الله تعالى إلا وحاسبتُ نفسى ، فوجدتُ نصيب الشيطان أوفى من نصيب الله ، ليته لا لى ولا علىّ .

ومع هذا فلا ينبغى أن يترك العمل عند خوف الآفة والرياء ، فإن ذلك منتهى بُغية الشيطان منه ، إذ المقصود أن لا يفوت الإخلاص ، ومهما ترك العمل فقد ضيَّع العمل والإخلاص جميعاً .

وقد حكى أن بعض الفقراء كان يخدم أبا سعيد الخراز ويخف فى أعماله ، فتكلم أبو سعيد فى الإخلاص يوماً يريد إخلاص الحركات ، فأخذ الفقير يتفقد قلبه عند كل حركة ويطالبه بالإخلاص ، فتعذر عليه قضاء الحوائج ، واستضر الشيخ بذلك ، فسأله عن أمره ، فأخبره بمطالبته نفسه بحقيقة الإخلاص ، وأنه يعجز عنها فى أكثر أعماله فيتركها ، فقال أبو سعيد : لا تفعل ، إذ الإخلاص لا يقطع المعاملة ، فواظب على العمل ، واجتهد فى تحصيل الإخلاص ، فما قلت لك : اترك العمل ، وإنما قلت لك : أخلص العمل ، وقد قال الفضيل : ترك العمل بسبب الخلق رياء ، وفعله لأجل الخلق شرك » اهـ (١) .

* *

● كلام ابن رجب حول العمل المشوب :

وللعلامة ابن رجب الحنبلى فى شرح حديث : « إنما الأعمال بالنيَّات » كلام جيد حول العمل المشوب ، وإن خالف فى بعضه الإمام الغزالى ، يحسن بنا أن نذكره هنا ، تتميماً للفائدة ، قال رضى الله عنه :

« واعلم أنَّ العمل لغيرِ الله أقسامٌ : فتارةً يكونُ رياءً محضاً ، بحيثُ لا يُرادُ به سوى مراآة المخلوقين لغرض دُنيوىٍّ ، كحال المنافقين فى صلاتهم ،

---

(١) الإحياء - طبعة دار الشعب ص ٢٧٢١ - ٢٧٢٥

كما قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ فَوَيلٌ لِلمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾ .... الآية (٢) .

وكذلك وصف الله الكفار بالرِّياء فى قوله : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِم بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾ (٣) .

وهذا الرِّياءُ المحضُ لا يكاد يصدُرُ من مُؤمنٍ فى فرض الصَّلاة والصِّيام ، وقد يصدُرُ فى الصَّدقة الواجبة أو الحجِّ ، وغيرهما من الأعمال الظاهرة ، أو التى يتعدَّى نفعُها ، فإنَّ الإخلاص فيها عزيزٌ ، وهذا العملُ لا يشكُّ مسلمٌ أنَّه حابطٌ ، وأنَّ صاحبه يستحقُّ المقتَ منَ الله والعُقوبة .

وتارةً يكونُ العملُ لله ، ويُشاركُه الرِّياءُ ، فإنْ شاركَهُ منْ أصله ، فالنُّصوص الصَّحيحة تدلُّ على بُطلانه وحُبُوطه أيضاً .

وذكر ابن رجب هنا جملة من الأحاديث ، مرّت بنا قبل هذا ، فلا داعى لإعادتها . ويكفى منها ما خرّج النَّسائىُّ (٤) بإسناد جيِّد عن أبى أُمامةَ الباهلىِّ أنَّ رَجُلاً جاء إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ؛ أرأيتَ رَجُلاً غزا يلتَمسُ الأَجْرَ والذِّكْر ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لا شَيْءَ لَهُ » فأعادها ثلاث مرات ، يقول له رسول الله ﷺ : « لا شيء له » ، ثمَّ قال : « إنَّ الله لا يقبلُ منَ العَمَلَ إلا ما كانَ له خالصاً ، وابتُغِىَ به وجهُهُ » .

وخرَّج الحاكم (٥) منْ حديث ابن عباس : قال رجل : يا رسول الله ؛

---

(١) النساء : ١٤٢ (٢) الماعون : ٤ - ٦

(٣) الأنفال : ٤٧ (٤) تقدَّم تخريجه .

(٥) ٢/ ١١١ من طريق عبد الله بن المبارك ، عن معمر ، عن عبد الكريم الجزرى ، عن طاوس ، عن ابن عباس مرفوعاً ، وهو فى كتاب « الجهاد » لابن المبارك (١٢) =

إنى أقف الموقف أريد وجْه الله ، وأريدُ أنْ يُرى موطنى ، فلم يردَّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً حتَّى نزلت : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾ (١) .

وممَّن رُوى عنه هذا المعنى ، وأنَّ العملَ إذا خالطه شىءٌ منَ الرِّيَاء كان باطلاً : طائفةٌ من السَّلَف ، منهم عبادةُ بنُ الصَّامت ، وأبو الدَّرداء ، والحسنُ ، وسعيدُ بنُ المسيِّب ، وغيرُهم .

وفى مراسيل القاسم بن مُخَيمرة ، عنِ النَّبىِّ ﷺ ، قال : « لا يَقبلُ الله عملاً فيه مثقالُ حبَّةِ خردلٍ منْ رياء » (٢) .

ولا نعرفُ عن السَّلَف فى هذا خلافاً ، وإنْ كانَ فيه خلافٌ عَنْ بَعض المتأخِّرينَ (لعله يقصد الغزالى) .

فإنْ خالطَ نيَّةَ الجهاد مثلاً نيَّةٌ غيرُ الرِّياء ، مثلُ أخذ أجرة للخدمَة ، أو أخذ شىء منَ الغنيمة ، أو التِّجارة ، نقصَ بذلك أجرُ جهادهم ، ولم يَبطُل بالكُلِّيَّة . وفى « صحيح مسلم » عن عبد الله بن عمرو ، عن النَّبىِّ ﷺ قال : « إنَّ الغُزَاةَ إذا غَنمُوا غنيمةً ، تعجَّلوا ثُلُثى أجْرِهم ، فإنْ لم يغنَمُوا شيئاً ، تمَّ لهمُ أجرُهم » (٣) .

وقد ذكرنا فيما مضى أحاديثَ تدلُّ على أنَّ مَنْ أراد بجهاده عَرَضاً منَ

= عن طاوس مرسلاً ، وكذا رواه من طريق ابن المبارك عن طاوس مرسلاً : الطبرى : (١٦/ ٤٠) ، والحاكم (٤/ ٣٢٩) ، وعبد الرزاق ، وابن أبى الدُّنيا فى « الإخلاص » وابن أبى حاتم ، والطبرانى ، فيما ذكره السُّيوطى فى الدُّرِّ المنثور (٥/ ٤٦٩) .

(١) الكهف : ١١٠

(٢) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٨/ ٢٤٠) عن يوسف بن أسباط قوله .

(٣) رواه مسلم (١٩٠٦) ، ورواه أيضاً أحمد (٢/ ١٦٩) ، وأبو داود (٢٤٩٧) ، والنسائى (٦/ ١٧ - ١٨) ، وابن ماجه (٢٧٨٥) .

الدُّنيا أنَّه لا أجرَ له ، وهي محمولةٌ على أنَّه لم يكن له غرَضٌ في الجهاد إلا الدُّنيا .

وقال الإمامُ أحمدُ : التَّاجرُ والمستأجر والـمُكارى أجرهم على قدر ما يخلُصُ من نِيَّتهم في غزاتهم ، ولا يكونُ مثل مَنْ جاهَدَ بنفسه وماله لا يَخلِطُ به غيرَهُ .

وقال أيضاً فيمن يأخذُ جُعْلاً على الجهاد : إذا لم يخرج لأجلِ الدَّراهم ، فلا بأس أن يأخذَ ، كأنَّه خرجَ لدِينه ، فإنْ أُعطى شيئاً ، أخذه .

وكذا رُوى عن عبد الله بن عمرو ، قال : إذا أجمعَ أحدُكم على الغزوِ ، فعوَّضَه الله رزقاً ، فلا بأسَ بذلك ، وأمَّا إنْ أَحَدُكُم إنْ أُعطى درهماً غزا ، وإنْ مُنع درهماً مكث ، فلا خيرَ في ذلك .

وكذا قال الأوزاعي : إذا كانت نِيَّةُ الغازي على الغزو ، فلا أرى بأساً .

وهكذا يُقَالُ فيمن أخذَ شيئاً في الحَجِّ ليحُجَّ به : إمَّا عَنْ نفسه ، أو عَنْ غيره ، وقد رُوىَ عن مُجاهد أنَّه قال في حجِّ الجمَّال ، وحجِّ الأجيرِ ، وحجِّ التَّاجرِ : هو تمامٌ لا يَنقُصُ من أُجُورهم شيءٌ ، وهو محمولٌ على أنَّ قصدهم الأصليَّ كان هو الحجَّ دُونَ التَّكسُّب .

وأمَّا إنْ كان أصلُ العمل لله ، ثم طرأت عليه نِيَّةُ الرِّياء ، فإنْ كان خاطراً ودفَعهُ ، فلا يضرُّه بغيرِ خلاف ، وإن استرسلَ معه ، فهل يُحبَطُ به عملُه أم لا يضرُّه ذلك ويجازى على أصل نِيَّته ؟ في ذلك اختلافٌ بين العُلماء مِنَ السَّلَف قد حكاه الإمام أحمدُ وابنُ جريرٍ الطَّبريُّ ، ورجَّحا أنَّ عمله لا يبطُلُ بذلك ، وأنَّه يُجازَى بنِيَّته الأُولى ، وهو مرويٌّ عنِ الحسنِ البصريِّ وغيره .

ويُستدلُّ لهذا القولِ بما خرَّجه أبو داود في « مراسيله » [1] عن عطاء

---

(١) برقم (٣٢١) ، وهو على إرساله ضعيف من جهة إسناده .

الخُراسانيِّ أنَّ رجلاً قال : يا رسولَ الله ؛ إنَّ بنى سلمةَ كُلَّهم يقاتلُ ، فمنهم مَن يُقاتلُ للدُّنيا ، ومنهم مَنْ يُقاتلُ نَجدةً ، ومنهم مَنْ يُقَاتلُ ابتغاءَ وجه الله ، فأيُّهُم الشَّهيد ؟ قال : « كلُّهم » إذ كان أصلُ أمرِه أن تكونَ كلمةُ الله هى العُليا .

وذكر ابنُ جريرٍ أنَّ هذا الاختلافَ إنَّما هو فى عملٍ يرتَبطُ آخرُه بأوَّله ، كالصَّلاة والصِّيام والحجِّ ، فأمَّا ما لا ارتباطَ فيه كالقراءة والذِّكر وإنفاق المال ونشرِ العلم ، فإنَّه ينقطعُ بنيَّةِ الرِّياءِ الطَّارئة عليه ، ويحتاجُ إلى تجديدِ نيَّةٍ .

وكذلك رُوى عن سُليمانَ بنِ داود الهاشميِّ [1] أنَّه قال : ربَّما أُحَدِّثُ بحديث ولى نيَّةٌ ، فإذا أتيتُ على بعضه ، تغيَّرت نيَّتى ، فإذَنْ الحديثُ الواحدُ يحتاجُ إلى نيَّاتٍ .

ولا يَردُ على هذا الجهادُ ، كما فى مُرسل عطاء الخراسانى ، فإنَّ الجهادَ يلزَم بحُضورِ الصَّفِّ ، ولا يجوزُ تركُه حينئذٍ ، فيصيرُ كالحجِّ .

فأمَّا إذا عَمِلَ العملَ لله خالصاً ، ثم ألقى الله لهُ الثَّناء الحسنَ فى قُلوبِ المؤمنين بذلك ، ففرح بفضل الله ورحمته ، واستبشَرَ بذلك ، لم يضرَّه ذلك » [2] .

وكان ذلك من عاجل ثوابه فى حياته الدنيا ، كما سيأتى فى الحديث .

* * *

(١) هو ابو أيوب سليمان بن داود بن علىّ بن عبد الله بن عبّاس ، الهاشمى ، فقيه ثقة جليل ، من رجال التهذيب ، توفى سنة ٢١٩ هـ ، وقوله هذا ذكره الخطيب البغدادى فى « تاريخه » (٩/ ٣١) ، والمزى فى « تهذيب الكمال » (١١/ ٤١٢) ، والذهبى فى « السّير » (١٠/ ٦٢٥) .

(٢) انظر : جامع العلوم والحكم (١/ ٧٩ - ٨٣) طبعة الرسالة .